وقد جئت فرقا أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد فقال زملوني وحسبت أنه عرض
له فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل يا أيها المزمل وعن عكرمة أن المعنى يا أيها الذي
زمل أمرا عظيما أي حمله والزمل الحمل وازدمله احتمله وقرئ قم الليل بضم الميم
وفتحها. نصفه بدل من الليل وإلا قليلا استثناء من النصف كأنه قال قم أقل
من نصف الليل والضمير في منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين أمرين بين أن
يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف
والزيادة عليه وإن شئت جعلت نصفه بدلا من قليلا وكان تخييرا بين ثلاث بين
قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه وإنما وصف
النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل وإن شئت قلت لما كان معنى قم الليل إلا قليلا نصفه إذا أبدلت النصف من قليلا وفسرته
به أن تجعل قليلا الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع كأنه قيل أو انقص منه
قليلا نصفه وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع كأنه قيل أو زد عليه
قليلا نصفه ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث فيكون تخييرا بين النصف
والثلث والربع فإن قلت أكان القيام فرضا أم نفلا قلت عن عائشة رضي الله عنها
أن الله جعله تطوعا بعد أن كان فريضة وقيل كان فرضا قبل أن تفرض الصلوات الخمس
ثم نسخ بهن إلا ما تطوعوا به وعن الحسن كان قيام ثلث الليل فريضة وكانوا على
ذلك سنة وقيل كان واجبا وإنما وقع التخيير في المقدار ثم نسخ بعد عشر سنين
وعن الكلبي كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث
والثلثين ومنهم من قال كان نفلا بدليل التخيير في المقدار ولقوله تعالى ومن الليل
فتهجد به نافلة لك ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع
الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان
وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سردا كما قال عمر رضي الله عنه شر السير الحقحقة

وشر القراءة الهذرمة حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألص وسئلت عائشة رضي الله عنها
عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن
يعد حروفه لعدها وترتيلا تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه ما لا بد منه للقارئ هذه
الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف
شاقة ثقيلة على المكلفين خاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه
ومحملها أمته فهي أثقل عليه وأبهظ له وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام
الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن لأن الليل وقت السبات
والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه وعن ابن عباس
رضي الله عنهما كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده وعن عائشة رضي الله عنها
رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا
وعن الحسن ثقيل في الميزان وقيل ثقيل على المنافقين وقيل كلام له وزن ورجحان ليس
بالسفساف. ناشئة الليل النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة
أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز إذا نهض قال
نشأنا إلى خوص برى نيها السرى وألصق منها مشرفات القماحد أو قيام الليل
على أن الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعاقبة ويدل عليه
ما روي عن عبيد بن عمير قلت لعائشة رجل قام من أول الليل أتقولين له قام ناشئة قالت
لا إنما الناشئة القيام بعد النوم ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة
التي تنشأ بالليل أي تحدث واحدة بعد أخرى وقيل الساعات الأول منه وعن علي بن الحسين
أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول أما سمعتم قول الله تعالى إن ناشئة الليل
هذه ناشئة الليل هي أشد وطأ هي خاصة دون ناشئة النهار أشد مواطأة
يواطئ قلبها لسانها إن أردت النفس أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أردت القيام